

إسماعيل العربي: حياته العلمية، ومنهجه في تحقيق التراث.

أ. الحبيب حاكمي*

1- حياته العلمية: إنه لمن المؤسف أن يجد الباحث صعوبة في الترجمة لعلم من أعلام الجزائر وقد أسهم في الكتابة التاريخية بما خلفه من رصيد علمي مهم، عكسته إنتاجاته العديدة حول تاريخ الجزائر خاصة وبلاد المغرب والأندلس عامة، فضلا عن خوضه معترك تحقيق الكتب التراثية والترجمة عن الفرنسية والإنجليزية، ولولا آثاره هذه لاكتنفه النسيان، إنه المؤرخ والباحث إسماعيل العربي، الذي يصدق عليه قول أحدهم:

آثاره تغنيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه

وقد خيل إليّ بداية أن إسماعيل العربي يسهل التعريف بشخصه وبمساره العلمي لشهرة تداول اسمه في مكتبة التاريخ الجزائرية خاصة والعربية الإسلامية عامة، بيد أن الأمر من الصعوبة بما كان، ذلك أن أعماله التي نشرها- وقد فاقت 60 عنوانا- بمختلف أنواعها (المحققة والمترجمة والمبتكرة) لم يرد في واحد منها ذكر لسيرته الذاتية، وعلى فرض أن هذا الأسلوب لم يكن متداولاً بكثرة لدى دور النشر في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، فإن الجهالة طبقت على ترجمته عبر شبكة الإنترنت، وهي أوسع مجالات البحث وأسرعها في الوقوف على المعلومة، كالموسوعات الشهيرة والمتخصصة، ومنها ويكيبيديا التي لم تفرد له ترجمة، ولا حتى المواقع الخاصة بأعلام الجزائر صنف له بطاقة على كثرتها، وعندما أعيد طبع بعض كتبه ضمن تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية عام 2007م لم يبادر المشرفون على هذا العمل بذكر سير أصحاب الأعمال المنشورة.

ولذا اعتمدت في سرد حياته العلمية على شذرات ما كتبه هو عن نفسه في مقدمات مؤلفاته وهوامش إحالاته، أو ما التقطته مشافهة عن بعض أقرانه ومن عاصره عن قرب.

* - أستاذ مشارك بقسم التاريخ وعلم الآثار - كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران.

ولد إسماعيل واعراب - وهو لقبه الحقيقي - بإحدى قرى سيدي عيش بجاية حيث نشأ وترعرع، وفي كتابيها تعلم العربية والقرآن، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية بالمدارس الحكومية الفرنسية، انتقل سنة 1942م إلى مصر فأقام بها ست سنوات أكمل خلالها دراسته الجامعية (ليسانس في الآداب)، وفي مصر اختار لقب العربي بدل " واعراب " بطلب ممن عرفه من المشاركة الذين استقلوا النطق به، فارتضاه لنفسه لقباً لتوافق المعنيين في العربية ولسان البربر، و صدرت بهذا الاسم أولى مقالاته عن تاريخ الجزائر في الدوريات الجامعية بالقاهرة¹، وعند عودته إلى الجزائر أوكلت إليه جمعية العلماء المسلمين مهمة تنظيم التعليم العربي وعينته رئيساً للجنة التعليم العليا ومديراً للمكتب الدائم الذي يشرف على تسيير هذا النظام، وفي الوقت نفسه كان يصدر مجلة للدراسات الأدبية والتاريخية عنوانها: "مجلة إفريقيا الشمالية"².

وأطلّ على القراء الجزائريين من خلال جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، ومن أشهر مقالاته المثيرة للجدل، تلك التي ناقش فيها نظرية مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة" الصادر باللغة الفرنسية سنة 1948م، وكان عنوانها "ما هي شروط النهضة الجزائرية"³، مبدئياً استغرابه من خلطه المتعمد في ترتيب أفكاره وفلسفتها، ثم رد عليه في مقالة أخرى مدافعاً هذه المرة عن جمعية العلماء التي انتقدها مالك بن نبي في الكتاب ذاته، حين أبانت عن رغبتها السياسية، وذلك عندما توجه علماؤها إلى باريس لعرض مطالب الشعب الجزائري، مما اعتبره - حسب رأيه - انحرافاً عن مسارها التربوي والإصلاحي⁴.

وبعد أربع سنوات من العمل في هذا الميدان التحق بجامعة السربون، وتخرج منها سنة 1954م حاملاً شهادة الدراسات العليا في العلوم التاريخية والاقتصادية، وفي فرنسا كلفته جمعية العلماء المسلمين بالإشراف على نواديها التعليمية إلى جانب ثلة من علمائها بداية من سنة 1956م، ثم انتقل بعدها إلى بنغازي في ليبيا فعين مديراً لشؤون الصحافة في مكتب رئيس الوزراء لمدة سنة، ومع بداية الستينيات سافر إلى لندن حيث اشتغل بالتدريس والصحافة لمدة أربع سنوات، وبقي بعدها سنة بأمستردام، وعند عودته إلى الجزائر شغل عدة مناصب إدارية إلى جانب مهنة التدريس في الجامعة الجزائرية، منها نائب رئيس لجنة تمويل التكنولوجيا التابعة لمجلس مؤتمر التجارة والتنمية المتفرع عن الأمم المتحدة 1970-1971م، كما عمل مندوباً في وفد الكويت الدائم للأمم المتحدة بجنيف لمدة ثماني سنوات، ثم مستشاراً ثقافياً للشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وأستاذاً محاضراً بمعهد اللغات الحية بجامعة الجزائر 1979-1980م، ومدرسا

بكلية الآداب- قسم التاريخ والعلاقات السياسية، وأستاذًا محاضرًا بالأكاديمية العسكرية لمختلف الأسلحة بشرشال،⁵ وكان له برنامج إذاعي خاص عن الصحراء الكبرى وشواطئها⁶، إلى جانب مشاركته في عدد من المؤتمرات والملتقيات الدولية والوطنية، وله عدة مقالات في مختلف المجالات والدوريات داخل الوطن وخارجه.

2- آثاره: إن ما يلفت انتباه الباحث عن الحياة العلمية لإسماعيل العربي هو كثرة سفره وتراحاله بين مختلف دول العالم، إما زائرًا لمكتبات ومتاحف عالمية، أو باحثًا عن مخطوطات نادرة، وهو ما مكنه من الاطلاع على كنوز مصادرها التراثية وربط علاقات وطيدة مع باحثين عرب وأجانب في رحلة زمنية استغرقت منه أزيد من عشرين سنة على الرغم من جمعه بين ثلاث مهن شاقة ومتعبة، وهي الصحافة، والتعليم، والعمل الدبلوماسي، وقد عكست مجهوداته الحثيثة تحقيق مجموعة من هذه المخطوطات، ومنها:

- كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي.
- كتاب سير الأئمة الرستميين وأخبارهم لأبي زكريا يحيى.
- سير مشائخ المغرب لأبي الربيع الوسياني.
- كشف الغمة في أخبار الأمة لسعيد بن سرحان العماني⁷.
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي.
- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي.
- نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال.
- رسالة في الجغرافيا لمؤلف مجهول من الأندلس (ق6هـ).
- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس وهو قطعة من كتاب نزهة المشتاق لشريف الإدريسي.
- المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان القرطبي.
- كتاب تقويم البلدان للملك الصالح إسماعيل أبي الفداء.
- العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع للرئيس إبراهيم (ق16).
- ومن مؤلفاته التاريخية نجد:
- دولة بني زيري ملوك غرناطة.
- دراسات في تاريخ الجزائر الحديث.
- المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر.

- العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر.
- دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة.
- دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية.
- المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.
- جدول المطابقة بين التقويم الهجري والميلادي.
- الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية.
- معجم الفرق والمذاهب الإسلامية.
- دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية.
- الصحراء الكبرى وشواطئها.
- معركة سيدي إبراهيم.
- ثورة الزيان 1841م.
- معجم الحواضر الإسلامية.
- الرحالة والمستكشفون المسلمون في القرون الوسطى.
- المسلمون والملاحة البحرية.
- معجم الجغرافيين والفلكيين العرب.
- ومن الكتب التي ترجمها للعربية عن أصولها الفرنسية والإنجليزية نجد:
- الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا لجوزيف رينو.
- مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر.
- الإسلام في مجده الأول لموريس لومبار.
- العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1816-1876م) لراي ايرون.
- مذكرات أسير الداي، كاتكرات قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب.
- الدراسات العربية في الجزائر خلال قرن من الاحتلال الفرنسي لماسي وآخرين.
- قصر الحمراء في الأدب والتاريخ لواشنطن أرفينج.
- سقوط غرناطة آخر معقل الإسلام لواشنطن أرفينج.

وقد صدر له- غير هذا- أزيد من 15 عنوانا في مختلف الشؤون الدولية والاقتصادية، عدا ما وضعه تحت الطبع في الجزائر والمغرب ولكنه لم ير النور، إلى أن وافته المنية في المملكة المغربية سنة 2000م.

3- منهجه في الكتابة التاريخية وتحقيق التراث المخطوط: اتسمت الإسهامات التاريخية لإسماعيل العربي بميزتين اثنتين: إحداهما وثائقية تاريخية، دلّ عليها اهتمامه بالتنقيب عن نفائس المخطوطات وتحقيقها، وأخرى تحليلية ومقارنة لمواضيع تاريخية وجغرافية مختلفة شملت منطقة بلاد المغرب والأندلس، بالإضافة إلى ترجمته للعربية عدة كتب ذات صلة بتاريخها، ويستفاد من مضمون أعمال المؤلف بحثه في إشكالية إعادة كتابة تاريخ المنطقة بصورة مخالفة للكتابة التاريخية الاستعمارية، وثقافت المستشرقين والمستعربين الذين سخروا- حسب رأيه- أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لمساعدة الاستعمار على فهم عقلية المسلمين⁸، ولذلك جاءت اختياراته المقدمة للقارئ العربي في شكل ترجمات لكتب متوازنة ومنصفة- إلى حد ما- للحضارة الإسلامية على غرار ما كتبه الكولونيل اسكوت وجوزيف رينو ولويس لومبار وغيرهم، في مبادرة منه لعرض نظرة غير المسلمين لتاريخنا، بينما اعتمد في أبحاثه على مقاربات منهجية ركّز فيها على جمع مادة مستفادة من مصادرنا التراثية، فجاءت عناوين مواضيعه مختلفة الأطر الزمنية والمكانية، ولكنها متجانسة من حيث منهجية طرحها كمداخل تمهيدية لإشكالات تاريخية وجغرافية لمنطقة الغرب الإسلامي.

غير أن ما يؤخذ على الكتابة التاريخية لدى إسماعيل العربي هو انحصارها في النمط التقليدي القائم على السرد أحيانا، والمعالجة السطحية للمادة أحيانا أخرى، دون محاولته الاستفادة من مختلف المناهج التاريخية الحديثة، واعتماد النقدي منها قصد تقديم إسهامات موضوعية بعيدة عن النظرة الذاتية والإطراء الإيجابي.

إن الارتجالية التي ميزت بعض أبحاثه أدت به إلى الإغراض عن أبسط مناهج البحث المتعارف عليها كتوثيق الموارد، وعزو النصوص المقتبسة إلى مظاهرها، مثلما هو الحال في دراسته عن "الصحراء الكبرى وشواطئها"، و"حياة الأمير عبد القادر"، و"المسلمون والملاحة البحرية"، و"المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي"، و"دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية"، و"المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر".

بينما يتجلى حسه النقدي بصورة واضحة في دراسته عن "دولة بني زيري ملوك غرناطة"، حيث فتح مجالاً للنقاش حول دور العصبية القبلية في ظهور الدولة وتماسكها وإن تغير الموطن وتبدلت الظروف، وهو ما تمثل في رهط بني زيري من قبيلة صنهاجة البربرية الذين هاجروا إلى الأندلس، وركبوا الصعاب حتى استقر ملكهم في غرناطة، وفي خضم تتبع حديثه المتسلسل زنيا حول الأحداث التي عرفتها الأندلس لأزيد من ثمانين سنة منذ دخولهم، ناسب أن يدحض نظرية المستشرق اليهودي فريدك باجيور حول المفاخر اليهودية في غرناطة، ومنها بناء قصر الحمراء في عهد وزير الزيريين، ومدير دولتهم يوسف بن النغيلة الإسرائيلي، الذي خصّه الباحث بفصل خاص جاء فيه على أخبار اليهود في غرناطة، مستدلاً على ذلك بما دونه مؤرخو الاستغرافية العربية، كشهدود عيان على تلك الفترة، من أمثال ابن حزم، وابن حيان، وابن بسم، والأمير عبد الله بن بلكين الصنهاجي⁹.

ولا تخلو تحقيقاته من ملاحظات منهجية، جرت عادة المحققين على الوقوف عندها تماشياً مع أساليب التحقيق العلمي الحديث، لاسيما وأنه واحد ممن حملوا لواء إعادة تحقيق تراثنا العربي، تحقيقاً علمياً يختلف عما نشره المستشرقون على مدار عقود من الزمن، ومن ذلك اكتشافه بتحقيق وتعريب ماله علاقة بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس من كتاب "نزهة المشتاق" للإدريسي على طريقة المستشرق هنري بريس في وصفه لإفريقيا الشمالية والصحراوية من الكتاب نفسه¹⁰، بينما كان في متناوله تقديم خدمة لعموم الباحثين لو أنه اهتم بإخراج الكتاب كاملاً، وهو العمل الذي أشرف عليه - فيما بعد - عدد من الباحثين والمستشرقين بإيطاليا، وأضحت النسخة الأكثر تداولاً بين الدارسين.

وشبيه بهذا إعادته تحقيق القطعة الثالثة من كتاب "المقتبس في تاريخ الأندلس" لابن حيان القرطبي، والذي كان الأب ملشور أنطونية قد قام بنشره سنة 1937م، إلا أن تحقيق إسماعيل العربي جاء مبتوراً في بعض نصوصه، ولا يعرف على وجه التحديد إن كان سهواً من الخلق أم خطأ مطبعياً¹¹.

ويرى أحد الباحثين أن الخلق وقع في الخطأ عندما أقدم على تحقيق الجزء الثاني من كتاب "سيرة الوسياني"، حيث اختلط عليه الأمر بينه وبين كتاب "السيرة وأخبار الأئمة" لأبي زكريا، وذلك حين مقارنة بين الأجزاء الثلاثة لمجموعة الوسياني¹².

ونجد أن اهتمامه انصبّ بشكل كبير على كتب الرحلات والجغرافيا من تراثنا النالد، وكان شديد الحرص عند تحقيق هذا النوع من المخطوطات، إذ تراه يجمع ما أمكن من النسخ المنتشرة عبر العالم، وهذا ما ذكره في مقدمات تحقيقاته، ومنها: مخطوطة رحلة أبي حامد الغرناطي (ت 565هـ/1069م)، "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" التي اعتمد فيها على تسع نسخ كاملة، الأمر الذي سهل عليه عملية المقارنة عند رتق ما طمس من النسخة الأصل، وتصويب ما أبهم فهمه منها، وست نسخ لرحلة أحمد بن مهدي الغزال (1191هـ/1727م) المسماة "نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد"، ناهيك عن النسخ التي لم يستطع الحصول عليها، واكتفى بالإشارة إلى أرقامها، وأماكن تواجدها¹³.

وتمثل مخطوطة "الجغرافيا" لابن سعيد الغرناطي (ت 685هـ/1286م)، قمة الإصرار الذي رفعه إسماعيل العربي لحوض غمار التحقيق الأكاديمي المبني على أسس علمية متعارف عليها، عندما قدمها كأطروحة إلى معهد الدراسات العليا بجامعة السربون، معتمدا على نسخة واحدة محفوظة بالمكتبة القومية بباريس¹⁴.

ولا تخفى صعوبة تحقيق الأصول المنفردة، وإن تمت الاستعانة فيها بنصوص المصادر الجغرافية لتوافق أسماء الأماكن وتقارب حروفها أحيانا، بيد أن الاختلاف يطال بصورة واضحة تحديد مواقعها الجغرافية، وهو ما تكرر في العديد من المواضع التي ذكرها ابن سعيد¹⁵. وتكمن أهمية هذا الكتاب في قيمة معلوماته الجغرافية، وصورة الخريطة الذهنية التي رسمها ابن سعيد في ذاكرته، فضلا عن المادة الإخبارية والاقتصادية والاجتماعية التي دونها من مجمل مشاهداته الوصفية في القرن 7هـ/13م.

وعلى الجملة يمكن حصر مختلف الملاحظات المنهجية التي أغفلها المحقق في النقاط التالية:

* لم يبين المحقق سبب اختياره اسم "كتاب الجغرافيا" عنوانا لهذه المخطوطة، لاسيما وأنه لم يرد في النسخ التي اعتمدها في التحقيق ذكر لذلك، على الرغم من اطلاعه على قطعة مختصرة محفوظة بمكتبة أكسفورد ذكر في أولها عنوان "بسط الأرض في طولها والعرض"¹⁶، وهي ذاتها التي اختارها فيما بعد المستشرق خوان بيرنيت خينيس، ونشرها بعنوان "بسط الأرض في الطول والعرض"¹⁷، والحجة الوحيدة التي استند إليها إسماعيل العربي هي أن "كتاب الجغرافيا ذكره" القلقشندي في صبح الأعشى وأبو الفداء في تقويم البلدان"¹⁸، غير أن المطلع على هذين

المصدرين لا يجد أي ذكر لذلك، وكل ما هنالك أهما اقتبسوا بعض النصوص الجغرافية عنه دون تسمية كتابه، وذلك بقولهما: "قال ابن سعيد"¹⁹، و"من كتاب ابن سعيد"²⁰.

* لم يبين سبب وصفه لابن سعيد بالمغربي، وهو الغرناطي الأندلسي، وبهذين النسبتين عرفه - في الغالب - المغاربة والمشاركة²¹، بينما مثل صاحب تقويم البلدان الاستثناء الوحيد فسمّاه "ابن سعيد المغربي" في موضعين مختلفين²²، وهي نسبة أطلقها أهل المشرق على بعض الوافدين إليهم من الغرب الإسلامي، وهي لا تقوم مقام الأصل والشهرة.

* الواقع أن المحقق لم يستعن بالنصوص التي نقلها أبو الفداء إسماعيل عن ابن سعيد في كتابه "تقويم البلدان"، وهي نصوص تفصيلية عن جغرافية المغرب والأندلس، وبينه الاختلال الواضح في الكثير من فقرات المتن، ومنه على سبيل المثال لا الحصر من النسخة المحققة: "...وفي شرقي جبل مديون، جبال مدغرة، وهم من قبيل عبد المؤمن"²³، بينما صوابه في "تقويم البلدان": "...وشرقي جبل مديونة جبال مدغرة، ومعظم أهل جبال مدغرة كومية، قبيل عبد المؤمن"²⁴، ومنه أيضا: "وفي غربيه على مرحلتين مدينة درعة، وهي [...] وموضوعها"²⁵، والتص بتمامه عند أبي الفداء: "...مدينة درعة، وهي بلاد جلييلة قد تضاف إلى السوس، وقد تضاف إلى سجلماسة"²⁶، وكان بالإمكان إدراج هذه النصوص ضمن ملاحق خاصة بآخر الكتاب لجبر البياض الواقع في الكثير من فقرات المتن.

* لم يفصح المحقق عن المنهجية التي اتبعها في التحقيق، ومنها عملية الترميز المضافة في المتن، كالأنقواس المعقوفة [] ، والبياض [...] ، والإضافات التي يقتضيها السياق، وحروف النسخ المعتمدة، واكتفى من كل ذلك بعرض مفصل لتاريخ الجغرافيا والجغرافيين العرب، وما أضافه ابن سعيد على من سبقه.

* لم يعرف بالموارد التي اعتمد عليها ابن سعيد، فهو كثير الاقتباس عن بطليموس، والبيهقي، والحجاري، والبكري، وابن اليشع، والخوارزمي، وبخاصة الرحالة ابن فاطمة فيما له صلة بإفريقيا.

* خلو الهوامش الملحقة بالكتاب من تقنيات ضبط النصوص، ومن ذلك سكوته عن عديد الأماكن الجغرافية المهمة في رسمها، وهو ما صعب من قدرته على تصحيح الأسماء الخرفة، والتي لا أصل لها في كتب الجغرافيا²⁷.

* عدم شرحه لكثير من المصطلحات الجغرافية التي استعملها ابن سعيد كقوله: (الدرجة، والميل، والقامة، والمجرى، والخور، والنوء، والجون، والشعبة، والذنب، والفرضية، والمشتى، والعقبة، وغيرها)²⁸.

* حاول المحقق أن يقارب بين أقوال الجغرافيين العرب حول طول منارة الإسكندرية فاختلط عليه الأمر، بل نسب لابن جبير - خطأ - أن طولها 50 قامة فقط³³، والظاهر من كلام ابن جبير أنه قاس بذراعه أحد جوانبها الأربعة فوجده "نيفا وخمسين باعا"³⁴، وأن طولها كما ذكر له أزيد من 150 قامة³⁵.

* موافقته للمستشرق رينو في خبر مدينة "هرقلية" من أنها ليست المدينة التي حرقها هارون الرشيد بل "أرشلي"، واستنتج من ذلك أن ابن سعيد اختلط عليه الأمر في المدينتين³⁸، والحقيقة أن الخبر الذي أورده ابن سعيد هو ذاته المذكور في معظم كتب التاريخ والجغرافيا³⁹.

92

بقي من الضروري التأكيد على أنّ الإحاطة بجميع نسخ جغرافية ابن سعيد من دور المخطوطات، واستدراك ما فات من نصوصها من مختلف المصادر المخطوطة والمطبوعة قد يتيح إمكانية إخراج هذا الكتاب في حلة قشبية، وصورة أتمّ مما هي عليه الآن.

وقد استعان المحقق بخبرته الطويلة مع كتب الجغرافيا والرحلات في وضع آخر دراسة له- حسب تاريخ صدور أول طبعة لها- بعنوان: "دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية".

ويأتي اختيار هذا الكتاب كنموذج للكتابة التاريخية والجغرافية عند إسماعيل العربي لسببين اثنين، نجملهما فيما يلي:

أولاً: اتبع فيه أسلوباً علمياً، من خلال توثيق موارده، ونقد وتحليل محتوياتها، مستفيداً من باعه الطويل في تحقيق هذا النوع من المخطوطات.

ثانياً: نوع من المصادر التي وقف عندها، فقاربت ثلاثمائة مرجع بين عربي وأجنبي، قصد تقديم عرض شامل لإسهامات المسلمين في علمي الجغرافيا والفلك، وقد ظل الباحث وفيّاً للاتجاه التقليدي في عرض ما حصل عليه من مادة، حيث قسّم الكتاب إلى ثمانية أبواب، وهي على التوالي: المعارف الجغرافية في العصر الجاهلي- تأثير القرآن- بداية الاهتمام بالمسالك والممالك- عصر الجغرافيا الفلكية- مساهمة الرحلة في تقليص رقعة المجهول- أنموذج للجغرافيا البحرية- أنموذج للربانة والمؤلفين البحرين- وأنموذج لكبار الجغرافيين العرب⁴¹، وقد استغرقت الأبواب الأربعة الأولى للتعريف بمذنب العلمين، ودور الإسلام في حثّ المسلمين على العلم والأخذ بأسبابه، بينما خصص بقية الأبواب إلى ترجمة أشهر الأعلام الذين اشتهروا برحلاتهم الأدبية، وغيرهم من الملاحين العرب في بلاد المشرق والمغرب، مع عرض لأهم ما ورد في مؤلفاتهم من معلومات جغرافية وفلكية.

وقد حاول الباحث تغطية الفترة الزمنية التي شهدت فيها الحضارة العربية الإسلامية هذا التقدم العلمي في مختلف أصقاع العالم، ومدى تأثير كتابات المسلمين على الحضارة الغربية، والظاهر أنه وجد صعوبة في الإحاطة بها، وعن ذلك يقول: "إن تقييم العمل الضخم الذي أنجزه العرب في ظرف نصف وخمسة عشر قرناً ليس بالأمر السهل"⁴²، وبدأ بذكر أشهر الرحالة العرب، فعرف بهم، وخص كل رحلة بذكر أول طبعة لها، ومن اهتم بها من المستشرقين لشهرت عنايتهم بهذا النوع من الكتابات، ثم عرج بعدها على اختصار ما تضمنته من معلومات

عن المسالك والمدن والمزارات، وعادات الشعوب من بلاد الأندلس إلى أقصى الصين، كما قُند ما روي من خرافات وأساطير دونها بعض الرحالة في مؤلفاتهم، ثم سرد تاريخ البحرية الإسلامية منذ نشأتها، واهتمام المسلمين بعلوم الملاحة البحرية، وأشهر الربانة والمؤلفين، وخصص الباب الأخير من كتابه لكبار الجغرافيين العرب، فذكر نبذ من حياتهم، وأشهر إسهاماتهم الجغرافية.

وفي مناقشاته لمن سبقه من الباحثين بهذا المجال، أولى المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي بالغ اهتمام في معظم مباحث كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، بل يكاد أن يكون مورده الأول في دراسته هذه، وإن بدا له فيه قصور عن الإمام بأهم المراجع العربية التي تحدثت عن الجغرافيا الوصفية عند العرب، فضلا عن مواقفه غير الصحيحة من الإسلام.⁴³ وقد استبعد الباحث أن "يكون ذلك منه احتقارا وتحافيا لنشاط العرب العلمي، لما حققوه وصنفوه من كتب، لأن ذلك يتنافى مع الروح العلمية التي يتمسك بها"⁴⁴.

ولابد لنا في ختام هذا العرض أن ننوه بمجهودات الباحث في خدمة التراث الإسلامي، بعيدا عن النظرة الاستشراقية التي طغت عليه خدمة للأهداف الاستعمارية المبنية على التشويه أحيانا والتشكيك أحيانا أخرى، وأن ما شاب منهجه في التحقيق لا يخرج به بأي حال عن دائرة أشهر المنقبين عن كنوز إرثنا المخبوء، بل بسبقه هذا حاز التفضيل لاسيما في مجالي الرحلات والجغرافيا، وأن الكتابات التاريخية سواء كانت من المصادر أو الوثائق تبقى بحاجة إلى النقد والتحليل على ضوء تطور المنهج العلمي وأثره فيها.

الهوامش:

- 1- تعريفات مختصرة بمقر جمعية العلماء المسلمين، الجزائر العاصمة، ص 6.
- 2- مقدمة ترجمته لكتاب الإسلام في مجده الأول لموريس لومبار، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1979م، ص 6.
- 3- جريدة البصائر، العدد 87، يوم 18 يونيو 1949م.
- 4- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986م، ص 26.
- 5- إسماعيل العربي، فصول في العلاقات الدولية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1990م، ص 5 و 229، و بطاقة تعريفية للمؤلف بآخر كتابه التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المشرق، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د ت).
- 6- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1983م، ص 6.
- 7- ذكره إسماعيل العربي ضمن كتبه الخفئة أكثر من مرة، وآخر تحقيق له قام به حسن محمد عبد الله النابودة، طبعة دار البارودي، بيروت، 2006م، وقد اعتمد فيه الخلق على خمس نسخ مخطوطة منتشرة عبر العالم، ولم يتمكن من المقارنة بين النسخين لعدم تمكني من الحصول على النسخة التي حققها إسماعيل العربي.
- 8- إسماعيل العربي، مقدمة تحقيقه لكتاب الإسلام في مجده الأول، المرجع السابق، ص 5.
- 9- إسماعيل العربي، دولة بني زيري ملوك غرناطة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص 81.
- 10- ينظر مقدمة الوافي نوشي في تحقيقه لكتاب أنس الملهج وروض الفرج للإدريسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط 2007، ص 1، 43، والقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، 1983م.
- 11- ينظر المقتبس من تاريخ الأندلس لابن حيان الأندلسي، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط 1990م، ص 33، ومقارنتها بما نشره الأب ملشور أنطونية، طبعة بولس كنتز الكتي، باريس، 1937م.

- 12- سِر الوسياني، لأبي زكريا سليمان بن عبد السلام بن حسن الوسياني(ق6هـ/12م)، ج1، دراسة وتحقيق عمر بن لقمان بن جو سليمان بوعصبانة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة سنة 1430هـ/2009م، ص39.
- 13- إسماعيل العربي، مقدمة تحقيق كتاب نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، لأحمد بن مهدي الغزال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص22، 23.
- 14- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1970م، ص24.
- 15- ينظر على سبيل المثال: 104، 115، 129، 171، وغيرها.
- 16- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص25.
- 17- ابن سعيد القرطبي، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان بيريت خينيس، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1985م.
- 18- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص24.
- 19- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشى، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج5، ص200 وما بعدها.
- 20- أبو الفداء إسماعيل، تقويم البلدان، دار صادر بيروت، صورة عن طبعة باريس سنة 1840م، ص45، وما بعدها.
- 21- ومنها: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، شرحه وضبطه يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج4، ص129، و ابن العديم في تاريخ حلب نقلا عن المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج2، ص324-325. ونسبته إلى غرناطة والأندلس وردت في أكثر كتبه المطبوعة.
- 22- أبو الفداء، المصدر السابق، ص87-299.
- 23- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص141.
- 24- أبو الفداء، المصدر نفسه، ص66.
- 25- ابن سعيد المغربي، المصدر نفسه، ص124.
- 26- أبو الفداء، المصدر نفسه، ص131.
- 27- ومنها: ص80، 88، 105، 108، 119، 129، 185، 201، وغيرها.
- 28- تنظر الصفحات: 83، 90، 119، 123، 155، وغيرها.
- 29- ابن سعيد المغربي، المصدر نفسه، ص183-192-193-194-199-200.
- 30- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص206-219-252.
- 31- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م، ص855-856-858-874.
- 32- ابن عبد المنعم الحميري، الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص89.
- 33- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، هامش 159، ص247.
- 34- ابن جبير، رحلة ابن جبير المسماة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، قدم له إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2002م، ص33.
- 35- ابن جبير، المصدر السابق، نفس الصفحة.
- 36- ابن سعيد المغربي، المصدر نفسه، هامش 124، ص242.
- 37- ابن الوران الزبائي، وصف إفريقية، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005م، ص498.
- 38- ابن سعيد المغربي، نفسه، ص255.
- 39- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1976م، ج8، ص320، وابن كثير، البداية والنهاية، اعتنى به حنان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004م، ص1557، وابن خلدون، ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة، خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط2000م، ج3، ص284، الحميري، المصدر السابق، ص592.
- 40- الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص892 وما بعدها.
- 41- إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1994م، بداية من ص38.
- 42- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص7.
- 43- إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص12.
- 44- إسماعيل العربي، نفس الصفحة.